آدم

أول إنسان خلق فى الدنيا ، فهو الإنسان الأول ، وهو أب الخلق أجمعين . خلقه الله من طين ، ولا غرابة فى أن يكون الإنسان بلحمه وعظمه ودمه مخلوقاً من طين ، فالنبات بحلْوِه ومرّه ، ينبت شجرةً فى الطين .

والله القادر ، خلق الملائكة من النور ، وخلق الجن من النار .

ولقد كرَّمْنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضَّلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا .

* * *

وكان تكريم الله لآدم ، أن أمر الملائكة أن يسجدوا له ، وليس سجودُهم عبادةً لآدم ، وإنما هو اعترافٌ منهم بأن الله شمله برعايته وتكريمه .

فسجد الملائكةُ لآدم ، طاعةً لأمر الله ، وتكريماً لإنسانٍ خلقه الله .

ولكن الكِبْرَ والغرورَ مَلآ إبليس ، فأبَى أن يطيع الله ، واستكبر أن يسجد لمخلوقٍ من تراب .

فسأله ربُّه : ما منعك أن تسجد لما خلقْتُ بيدىَّ ؟ أستكبرت ؟ أم كنتَ من العالين ؟

قال : أنا خيرٌ منه ، خلقْتَنى من نار ، وخلقتَه من طين . أهذا الذى كرَّمتَ علىَّ ؟ لئِنْ أخَّرتنى إلى يوم القيامة ، لأَحْتَنِكَنَّ ذرِّيتَه ، إلا قليلا .

قال له ربه : اذهب ، فمن تبعك منهم ، فإن جهنم جزاؤكم جزاءً مَوْفورا ،

واستَفْزِزْ مَن استطعتَ منهم بصوتك ، وأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلِك ورَجْلِك ، وشارِكْهم فى الأموال والأولاد ، وعِدْهم ، وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . . .

وركب إبليسُ رأسَه ، وعصى ربَّه ، وخَسِرَ خسراناً مبيناً .

وطرده ربنا من رحمته : فاهبِطْ منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرجْ إنك من الصاغرين .

* * *

وتولى اللهُ برحمته آدم ، فعلَّمه كلَّ أسماء الموجودات ، والمخلوقات فى الدنيا .

ثم امتحن الله الملائكة ، فيما علَّمه آدم ، فقال لهم : أنْبِئُونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين .

قالوا : لا علم لنا ، إلا ما علَّمتَنا ، إنك أنتَ العليم الحكيم .

قال : يا آدم ، أنبئْهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيبَ السمواتِ والأرض ، وأعلم ما تُبْدون ، وما كنتم تكتمون .

* * *

وكرَّم الله آدم ، فقال له اسكنْ أنتَ وزوجُك الجنة ، وكلا منها رغداً ، حيث شئتما .

* * *

والله المنعم ، يحب أن يُشكر على نعمته ، وأسمى مظاهر شكره ، طاعتُه ؛ فإن لم تكنْ طاعة ، فلا شكر ، ومن لم يشكر الله على نعمته ، سلبه هذه النعمة .

* * *

وكذلك كان آدم وزوجته ، حين أمرهما الله ألا يقربا شجرةً بذاتها ، من أشجار الجنة ، وألا يأكلا منها .

وما كانت هذه الشجرة ، أطيبَ شجرة ، ولا أحسنَ ثمرة ! ولكنها حكمة الله فى الامتحان والاختبار ، والصبر والاصطبار .

وكيف يُطيق إبليسُ الشيطان ، أن يرى هذين الزوجين ، يسعدان وينعمان فى جنة الله !

وكيف يصبر عليهما ، من دون أن يُنغِّص عليهما ، ويُفسد حياتهما ، ويُغْوِيهما ، ويُنسيهما تحذيرَ الله !

وكيف لا يُزيِّن لهما هذه الشجرة ، ويُغريهما بأنها شجرة ، من أكل منها ، أصبح من الملائكة المقرّبين ، وأن مَن ذاقها ، عاش مُخَلَّدا أبدَ الآبدين !

وكان ماحذَّر الله أن يكون ! ووسوس الشيطان لآدم ، ووسوس لزوجته حواء ، فأكلا من الشجرة ، ووقعا فى الخطيئة ، وغرقا فى المعصية ، وبدت لهما سوءاتُهما ، وانكشف عنهما سترُ الله ، فظهرت لهما جَسَامةُ العصيان . ودارا فى الجنة ، يقطِفان من أوراقها وأغصانها ، ليستترا ما انكشف منهما ؛ وطار صوابهما ، واطَّلع عليهما ربُّهما من عَليائه ، يقول لهما :

ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقلْ لكما ، إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربَّنا ظلَمنا أنفسَنا ، وإن لم تغفرْ لنا ، وترحمنا ، لَنكونَنَّ من الخاسرين . والله غفور رحيم ، أرأفُ بعبده ، غفر له ، فلم يُهلكه ، ولكنْ عاقبه ،

فطرده هو وزوجته من الجنة ، وطرد إبليسَ شريكهما ، وأنزلهما من علياء الجنة ، إلى دنيانا هذه .

إن اهتدينا ، رضى الله عنا ؛ وإن ضللنا سخط علينا ، وأشقانا . قال : اهْبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينَّكُم منى هدى ، فمن اتَّبع هدٰىَ ، فلا يضل ولا يَشقى ، ومن أعرضَ عن ذِكرى فإن له معيشة ضَنْكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

يا ويلَنا من الشيطان ! أخرج آدم من الجنة ، وما يزال يُخرج أبناء آدم من طاعة الله ، ويبعدهم عن رضوانه !

أىُّ شرٍ فى الدنيا ؟ وأى جريمةٍ فى مجتمع ؟ وأى حربٍ ضروس ؟ وأى عقوقٍ من ابن لوالديه ؟ وأى فضيحة فى أسرة ؟ وأى شقاقٍ بين إخوة ؟

بل أى وسوسة فى صلاة ؟ بل أى شك فى عِرض ؟ بل أى تحريض على قتل ؟ بل أى إغراء بثأر ، بل أى تسامح فى شرف ؟

ليست أى مأساة فى الدنيا ، إلا كان إبليس مبعثَها ، ومُصَمِّمَ خُطَّتِها ، ومُنفِّذَها !

وأى مأساة ، أبشع وأشنع ، من مأساته مع ربه ، فى تحدِّيه وعصيانه !

معركةٌ بين الخير والشر . بين الخير فى طاعة الله ، وبين الشر ، فى الوقوع فى شَرَكِ ابليس الشيطان !

* * *

سبحانك ربى ؛ إننا نخاف غضَبك ، ونخشى عذابَك ؛ ماذا أعددتَ لنا من عقاب وعذاب !

كل جريمة آدم ، أنه أكل من شجرة ، وكل الجنة شجرٌ وثمر ، فطردتَه من جنتِك ، وهَبَطْتَ به إلى جحيم الأرض .

وها نحن أولاء ، يا رب ، نقتل ونَفْسُق ، ونَعيثُ فى الأرض فساداً ! غفرانَك ربى ، فلا تؤاخذْنا بجرأتِنا عليك ، ولا تَكِلْنَا إلى إبليس ، حتى لا يَفتِنَنَا عنك .

وألهِمْنا الصوابَ حتى نعود إليك !

معركة الحب

بين بنى آدم

وهبط آدم إلى الأرض ، إلى الدنيا ، ليعيش ويتناسل ، ومنه ومن ذريته يَعْمُرُ الكون ، ويتسع العمران .

وكيف يتكاثر الجنس من زوجين اثنين ؟

وأراد الله أن تحمل حواء وتلد ، وأن تلد توائم ، فى كل بطن ذكر وأنثى ، ولد وبنت ، ثم بنت وولد ، ويكبر هؤلاء وهؤلاء ، ويبلغ الصبيان مبلغ الرجال ، وتكتمل أنوثة البنات .

ويرى آدم ، وهو سليم الفِطرة ، أن يزوج فتى البطن الأولى من فتاة البطن الثانية ، وأن يزوج فتاة البطن الأولى من فتى البطن الثانية .

ودلته فِطرته ، إلى أن الأخ لا يستولد أخته التى كانت معه فى بطن واحد . وخَلاَصٍ واحد . وإنْ استولدها خرج ولدُها ضعيفاً سقيما ، فلا يتكاثر النسل ، ولا يقوى الجنس ، لفتورِ العاطفة ، وبُرودِ الحاسَّة ، وتغلُّب الحنان على الشهوة ، بين الشقيق والشقيقة ، والتوأم والتوأمة .

حتى نحن فى هذه الأيام ، لا نرضى كثيراً عن زواج الأقارب ، وبَنات الأعمام والأخوال ، ونقول فى الأمثال :

إن من يستحى من بنت عمه ، لا يأتى منها بغلام .

وارتضى آدم ، وزوجته حواء ، وأبناؤه الصبيانُ والصبيات ، هذا النظام الذى رسمه ، والدستورَ الذى قنَّنه .

* * *

ولكن العاطفة حين تغلب على العقل ، والشرَّ حين يتحدَّى الخير ، والشيطانَ حين يُحرِّض على الخروج على القانون ، والعقوق حين يسبق الطاعة ، والجمال حين يستبدُّ بالقُبح والذَّمامة ، والنفسَ الأمارةَ بالسوء .

كل هذا جعل معركة الحب تدور بين قابيل وهابيل من أولاد آدم . قابيل يتعلق بتوأمته الجميلة ، ويضنُّ بها على أخيه هابيل أن يتزوجها ، ويرفض أن يتزوج توأمة هابيل الدَّميمة الصورة ، القبيحة التكوين .

فهو يحب هذه ، ويكره تلك ، ويصر على أن يخرج على الدستور ، وأن يحطم القانون ، وأن يذبحه على مذبح الحب ، مهما اضطرب النظام ، واختل العرف .

ويرى أن جمود القانون ، لا يصد تيار العاطفة الجارف ، ويجيز لنفسه أن يُشبع هواها ، ويُصم أذنيه فلا يستمع لصوت العدل ، وأن يضحى بكل تقليد رسمه أبوه .

* * *

وكانت معركة الحبّ ، وثورة الأثرة ، ونذير الحرب . وكانت حيرة الأب الحنون ، بين ولديه قابيل وهابيل ، بين التمرد والطاعة ، وبين الحق والاغتصاب !

واتجه آدم إلى ربه فى حيرته ، يسأله أن يُلهمه الصواب والهداية ، حتى يعيد الحق إلى نصابه .

فألهمه الله أن يُوجّه ولديه ، إلى الاحتكام لأمر الله ، وأن يتقرّبا إلى الله ، وأن يقدم قابيل قرباناً من زرعه ، وأن يقدم هابيل قرباناً من غنمه .

* * *

وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فقدم قابيل النمرود قربانه ، ليحصل على معشوقته ، وقدم هابيل قربانه ، ليتحرّى إرادة الله ورضاه فى قربانه . فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل .

وكانت الجميلة المعشوقة من حظ هابيل . وفاتت الفرصة على قابيل ، فازداد غيظه ، واشتد حَنَقُه ، وملأت الكراهية قلبه ، وجفَّت شجرة الأخوة فى صدره ، وطاش عقله ، وتملَّك إبليس زِمامه ، وحرَّضه على أخيه ، وهمَّ به أن يقتله !

وقال له أخوه الطيب هابيل : لئن بَسَطْتَ إلىَّ يَدك لتقتلنى ، ما أنا بباسطٍ يدىَ إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تَبُوء بِأثْمِي ، وإثْمِك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين .

هابيل فى حلمه ، يصبر على قابيل فى جنونه وثورته ، وهابيل قوى متين ، يقدر أن يقتله ، ويستطيع أن يبطش به ، ولكنه يخاف الله فى أخيه ، ويُبقِى عليه ، ويتوعَّدُه إنْ هو أقدم على قتله ، أن يتحمل ذنوبا لا طاقة له على حَملها ، ويتهدَّدُه ويخوِّفه أن يتردَّى ، فى هاوية غضب أبيه ، وغضبُ الأب

من غضب الربّ ، وغضبُ الربِّ يقذف بالعُصاة فى النار ، وذلك جزاء من يطغى ويغتصب حقَّ الآخرين . جزاء مَن يجترئ على نفسٍ فيقتلها ، وعلى روحٍ فيُزْهقها ، وعلى نعمةِ الحياة فيسْلبها .

هدوء ، تُوحِى به خَشْيةُ الله ، وحَنانٌ زرعتْه الأُخُوَّة ، وحرصٌ على سُمعة الأسرة ، وخضوعٌ لما رسم الدستور والقانون . وتقديرٌ للمسئولية أمام الله وحسابه ، وخوفٌ من عقابه !

وثورةٌ وعقوق ، وأثرةٌ وحبٌّ للنفس ، وانسياقٌ مع الشيطان ، وانزلاقٌ فى الطغيان ، وبُعْدٌ عن ساحة الرحمن ، وعنادٌ وعصيان .

قوتان تصْطَرِعان ، خيرٌ وشر ، وإيمانٌ وكفر ، وجنةٌ ونار ، وميدانٌ للحب الملتهب بعاطفته ، وللعقل المتأنِّى المتزن .

وإبليسُ يلعب بالنار ، ويُغْرِى بالجريمة ، ويَصيحُ بالفتنة ، وكان ما كان ، وقتل الأخ أخاه ، وفَزِعَت الأرض إلى الله ، من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

وحَزِن الأب لنُشوب الحرب بين بنيه ، وتمزَّقَ صدره من الأسى ، أظلمت الدنيا فى عينيه .

ورقص إبليس ، وسطَّر فى سِجلِّ الكَوْن أولَ جريمةِ قتل ، وإهراقِ دم ، وإزْهاقِ روح ، لم تكن بين عدوين ، بل كانت بين أخوين .

* * *

وأفاق قابيل على صَرخة الإنسانية ، يَصمُّ أذنيه ، وفَتَّح عينيه ، فرأى دماءَ الأُخُوَّةِ الحارَّ ، يسيل تحت قدميه .

أفاق القاتل ، على أنات القتيل !

أفاق ، فرأى أخاه طريحاً جريحاً مُضرَّجاً ، وتمثلتْ له الجريمةُ الأولى ، فساختْ به قدماه ، وخانتْه عيناه ، فَطَفَرتْ الدموع ، وتتابعتْ الأنفاس بالحسرات !

وماذا يفعل بالراقدِ المطروح ، والجسمِ المجروح ، والعُنق المذبوح ، والريحُ يفُوح ، ومن يا ترى بالسرِّ يبُوح !

وراحت السَّكْرة ، وجاءت الفِكرة ، وتوارَتْ الأَثَرة ، واشتملتْه الحَيْرة والحسْرة !

أيتركهُ ؟ وما تعوَّد أن يتركه !

أيرميه فى البحر ؟ ولا بحر !

أيُطعمه للسِّباع ، والنسور الجياع ؟

عذابُ النفس ، وقَلَقُ الضمير ، وفَضِيحُ النَّدم ، وخوْفُ العار ، ومُلاحقَةُ الفضيحة ؛ قَتَلَ أخٌ أخاه ، وقَتَل قابيلُ هابيل من أجلِ امرأة ! !

* * *

واحتمل جُثَّتَه على ظهره ، ودار بها حَيْران ، لا يدرى ما المصير ؟ وقضى نهارَه مهْموماً ، وليلَه حزيناً ، حتى نَتُنَت الجِيفَة ، وخبُثت الرائحة ، ونَفِدَ الصبر ، وضاق الصدر ، وعزّ المخْرَج ، ولم يبق إلا عفو الله ! !

* * *

والله عفُوٌّ غفور .

ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسَبوا ، ما ترك على ظهرها من دابَّة ، ولـكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

* * *

وكان لابد لهذا الآثم المسكين ، أن تنْحلَّ أزْمته ، وتنفرج كربته ، وأن يُعَادَ أمام عينيه تمثيل مأساته ، على مسرح صغير ، يقام أمامه .

* * *

فبعث الله غرابين أسودين ، يتنافسان على فُتَاتٍ من خَشَاشِ الأرض ، فيتشاجران ، فيصْطرعان ، فيقتل أحدهما أخاه ، حتى إذا مات ، هدأت ثورة الغراب القاتل ، وأحسّ بجريمته ، فجثا على جثة أخيه يبكيه ثم حفر فى الأرض ، فدفنه ، وواراه ، وأهال عليه التراب . ثم بلَّل تراب القبر بدموعه ، ثم ركع يودِّعه ، ثم طار وغاب ، كل هذا ، وقابيل ، يشهد هذه المسرحية ، وهو واجم ساهم ، كأنما كانت سياطاً تُلْهب رُوحه وجسده ، وهو لايقوى على تأوِّه أو صراخ .

ثم انفجر يبكى بعينيه ، ويلطم خديه ، ويجثو على ركبتيه ، ويقول : ياويلتا ! أعجزْتُ أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارىَ سوأة أخى ، فأصبح من النّادمين .

من أجل ذلك ، كتَبْنا على بنى إسرائيل ، أنه مَنْ قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض ، فـكأنما قتل الناس جميعاً .

ومن أحياها فـكأنما أحيا الناس جميعاً .

نوح

كانت فترةٌ بين آدم ونوح ، عَمَرَ فيها الكوْن ، ونَضَجَ فيها وَعْى الناس ، وظل الخلْق يعبدون الله ، متدينين بالدين الذى علمهم أبوهم آدم .

فلما طال بهم العهد ، شغلهم المعاش عن دينهم ، فبعدُوا عن ربهم ، وفترَتْ حماستهم لتديُّنهم ، وانطمست صورة التوحيد الواضحة فى قلوبهم ، فاتخذوا تماثيل وأصناما يرمزون بها إلى الله ، ثم تخيلوها صورة الله ، وقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله .

* * *

ثم بالغوا فى تصوير التماثيل ، وفى زخرفة الأصنام ، وفى تمجيدها ، والاحتفاء بها ، ثم أسرفوا فى تقديسها ، حتى ألْهَتْهم عن الله ، ثم قالوا : هى الله ، وعبدوها من دون الله ، يرجون خيرها ، ويخافون عقابها .

* * *

فكانت حياتهم حياة الكافرين المشركين ، لا إله ولا دين ولا خلق .

* * *

ففسدت حياتهم ، وساءت أخلاقهم ، واضطرب معاشهم ، وفشا العيب فيهم . وعاندوا نبيهم ، واستهزءوا بمرشدهم ، واستكبر أغنياؤهم ، وهان فقراؤهم . بل شاع فيهم خيانة الزوجات ، وعقوق الأبناء آباءهم .

* * *

وفى مثل حالهم ، تتجلّى حكمة الله فى أن يرسل الرسل ، ليدرك الخلق

برحمته ، ويرحمهم برسالته ، وينقذهم من الضلالة ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعود بهم إلى الإنسانية السامية ، والفطرة السليمة .

وأوْحى الله إلى نوح ، أن اهدِ قومك ، ورغِّبْهم فى عبادة الله . وحذِّرْهم عبادةَ الأصنام ، وخوِّفْهم عاقبةَ الشرك بالله ، وقُلْ لهم : إنى لكم نذيرٌ مبين ، ألا تعبدوا إلا الله ، الذى أبدع الكون ، وخلق الخلق ، ورفع السماء ، وسوّى الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرَّ الضَّرْع ، وسيَّر النجوم فى الأفلاك ، وأطلع الشمس ، وأزهى القمر ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون .

* * *

ولو حاول المثّالون ، صانعو التماثيل ، أن يقيموا تمثالا للصبر ، وسَعَةِ الصدر ، وطول البال ، وتحمُّل الأذى ، لما وجدوا أوضح فى التعْبير ، ولا أَخْلَدَ للذكرى ، من تمثال نوح .

* * *

لَكَ اللهُ يا نوح ، طوَيْتَ تسعَ مئةِ سنة ، تدعو قومك إلى الله ، وهم يكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام والأوثان من دون الله .

يا لَكَ من مُعلِّم ، طويل البال ، تقضى العمر كله ، تدعو مَنْ لا يستجيبون ، وتُفهِّم من لا يفهمون !

وما كانوا أغبياء ولا مُغفَّلين ، وإنما كانوا معاندين متكبرين ، والعناد يورث الكفر ، والعياذ بالله .

* * *

ونوحٌ كان معلماً ، وخيرَ معلم ، اجتمع فيه كل صفات المعلم الكامل ، اجتمع له الإخلاص لرسالته ، وتمَّتْ له نعمةُ فصاحته ، وطراوَةُ لسانِه ، وصفاء بيانه ، ورجاحةُ جنانه ، وبراعةُ طريقته ، وسلامةُ طويَّته ، وسعةُ صدرِه ، وسموُّ نفسِه .

حتى كان يترفَّع عن إسرافهم فى أذاه ، وعن تبجُّحِهم فى معارضته ، وقِحَتهم فى مجادلته ، وسخريتهم به ، واستنكافهم أن يؤمنوا برسالته ، واستعظامهم أن يُسَوِّىَ هذا الدين الجديد ، بين الأغنياء العُتاة ، والفقراء الحفاة .

* * *

ثم هذا التحدِّى الباجح ، حين قالوا له : هات ما عندك من وعيد وتهديد . وإن لم تأتنا به ، فأنت كاذب الكاذبين .

« يا نوح ، قد جادلتنا ، فأكثرتَ جدالنا ، فأْتنا بما تعدنا ، إن كنتَ من الصادقين » .

* * *

ولم يثنه العناد ، ولم يُؤيِسه التنطُّع ، بل أخذ يدعوهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا .

* * *

ثم فتح لهم باب التوبة ، ونوافذ الأمل ، ومنَّاهم بأغلى الأمانى ، « استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددْكم بأموال وبنين ، ويجعلْ لكم جنات ، ويجعل لكم أنهارا » .

ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارا واستكبارا .

وكلما دعاهم ، صموا أسماعهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأخفوا رءوسهم فى أذيال أثوابهم ، حتى لا يروه ولا يسمعوه .

* * *

واتخذوا فى مجادلته أساليب ملتوية ، ومغالطات ومناقضات ، فقالوا مرة : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الله من شىء .

ولو أراد ربك أن يرسل رسولا ، لأنزل ملَـكًا ، وكنا نحترمه ، ونستمع إليه .

وقالوا مرة أخرى : أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون ؟

وكيف نرتضى ديناً ، يُسَوِّى بيننا ، وبين طَغَامِ الناس وسِفْلَتهم ؟ اطردْ هؤلاء الأرذلين يا نوح ، ونحن نتبعك ، ونؤمن بك ، ونعزّك ، وننصرك !

ونوح يقول : ما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين .

* * *

فلما أعيا حيلتهم ، واستنفد طاقتهم فى جداله ، وقتلهم بصبره ، وألزمهم الحجة ، سئموا ، وضجروا ، وقالوا :

لئن لم تنته يا نوح ، لتـكونن من المرجومين .

* * *

وهو كذلك ، قد نفِدَ صبرُه ، وكاد ييأس ، وظنَّ أن الله قد تخلَّى عنه ، وأنه مكذوبٌ فى رسالته .

« حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كُذِبُوا ، جاءهم نصرنا » .

* * *

وأوحى الله إلى نوح : أنه يكفيك ما بذلت ، وما احتملت ، وقد أخلصْت في مُهمتك ، ولم تدَّخرْ وُسعاً في طاقتك .

وما عليك ، إذا كنت بذرت البذر في أرض سَبِخَة ، تُنكر حَبَّها ، وتأكل خيرها وثمرها .

يا نوح ، إنه لن يؤمن من قومك ، إلا من قد آمن ، فلا تبْتئِسْ بما كانوا يصنعون .

* * *

وتغيرَّت نفس نوح على هؤلاء الحمقى الجاحدين ، بعدما كان يحرص عليهم ، وهم في عصيانه سادرون .

* * *

وصدق رسولُنا عليه الصلاة والسلام ، حين قال : اتقوا غضب الحليم ، حين لا يبقى في صدره بقيَّة من حلم ولا من حب .

ولم يبق إلا الغضب عليهم ، والنِّقمة منهم ، وسؤاله ربه ، أن يعاقبهم ، وأن يشدِّد عليهم ، وأن يريح الأرض والعالم بهلاكهم .

* * *

فرفع وجهه ، وبسط كفه ، ودعا الله عليهم .

« ربِّ ، لاتذرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا ، إنك إنْ تذرْهم يُضلوا عبادَك ، ولا يلدوا إلا فاجِراً كفارا .

رب اغفرْ لى ، ولوالدىّ ، ولِمَنْ دخل بيتىَ مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا » ، يعنى هلاكا .

* * *

سَوْرَةٌ من غضب ، وصرخةٌ للحق ، وغضبٌ لله ، واستنزال للَّعْنة ، حتى لو كانت على زوجة أو ولد .

* * *

وتابَعَهُ الوحى يقول : واصنع الفلكَ بأعيننا ، ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون . حتى لو كانوا أقرباءك وأنسابك ، أو زوجتك وذريتك .

* * *

وصنع السفينة ، بعيدة عن الماء ، واحتمل فى ذلك جهدا ومشقة ، وسمع مايكره ، وياما أسمعوه من قوارص الكلم ، وقذائف النكت ، وبذاءات السخرية .

وكان حلمه يراوده ، وصبره يعاوده ، وتخويفُه إياهم بأن الغد قريب ، وستندمون ، وتعضُّون على أصابعكم ، حين تلقوْن العذاب ، سنردُّ عليكم الهزء هزأين ، والتهكم تهكمين .

وحان الميعاد ، المقدور فى أقدار الله .

وبانت العلامات المُؤْذِنة بالعقاب النازل .

فتفجرت المياه من النار ، وفاضت من الأفران ، وفارت من المَحْمَى .

وناداه الوحى : أنْ يا نوح ، قد أزفت الآزفة ، وليس لها من دون الله كاشفة .

ويا نوح ، قم ، فاجمع شملك ، ولُمَّ أهلك ، وناد من آمن بك واتبعك ، وخذ معك زادك ومتاعك ، وخذ من الطير والحيوان والوحش ، فالعالم سيفنى ،

ولا يبقى إلا ما تحمله سفينتك ، فهى بذرة ونواة لعالم جديد ، بعد أن نُهلك هذا العالم الفاسد .

* * *

وقد عالجتهم يا نوح طول السنين ، ولم يشْفِهم علاجك ، والبتر آخر العلاج يانوح .

* * *

قلنا احملْ فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم .

* * *

فمن هم يا ترى ، أولئك الذين سبق عليهم القول ، ولا شفاعة فيهم ، ولا رحمة ترجى لهم ؟

هم هؤلاء الكفرة ، وتلك الزوجة ، وهذا الولد : فهؤلاء الكافرون ، عصَوْا ربهم ، وجحدوا دينهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب .

وما شأن تلك الزوجة ؟ .

والزوجة هى الصاحبة ، وشريكة الحياة ، ومكمن السر ، ومثوى الراحة ، والراعية فى شئون زوجها ؟ .

فما شأنها ؟ حتى يطرحها نوح فى مطارح الكفرة ، ويتبرأ إلى الله من عشرتها ويقطع حبل وصلها ، ويتخلص منها ؟ .

وما جنايتها معك يا نوح ، حتى تقتلها وتُهلكها ؟ .

« وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت

عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

فلم يشفع فيها أنها زوجة نبي ، وأنها تكرَمُ من أجل زوجها ، وقد كانت مسكنه ومرقده ، وقد كانت محسوبة عليه .

* * *

لقد خانت زوجها ، ويا بِئس ما فعلت ! .

خيانة ، أى خيانة ، وفى أيَّة صورة كانت ، فهى خيانة . فى عرضه ، فى شرفه ، فى دينه ، فى أداء رسالته ، فى انحيازها إلى الكافرين أعدائه ! .

خيانة أى خيانة ، ومهما كانت ، فهى خيانة .

وأشق المشقات على الرجال ، أن تخونه مَنْ يعتقد أنها أمينة عليه ، فى حياته ، وفى منامه ، وفى مطعمه ، وفى ولده ، وفى سره وعلنه .

خيانة ، مهما كانت ، فهى خيانة ! .

* * *

ألم تلد له الولد العاق ؟ المتمرد على ربه ودينه وأبيه ؟ .

ونادى نوح ابنه ، وكان فى معْزل ، يا بنىَّ . اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل ، يعصمنى من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله ، إلا من رحم ، وحال بينهما الموج ، فكان من المُغْرَقين .

أفما كان ابنها فى صف أعداء أبيه ؟

غفرانك ربى ، فلو كان ولدها ابن حلال ، ولو كان نوح تخيَّر لنطفته ،

ما كان سبق الشيطان فيه ، ولكان أبر بأبيه من إخْوته ، سام ، وحام ، ويافث ! .

ولما كان خذل أباه ، الشيخ الفانى ، وقد جاوز الألف سنة من عمره ، قضاها ، وهو يكافح ، وينافح ، وهو فى سنِّ الاحتياج إلى الولد ! .

وما أعنف أن يكون الولد ، محطما للعضد ، مهدماً للسند ، مفتاً للكبد !

* * *

لك الله يا نوح ، وأنت فيما أنت فيه ، يهزُّك الحنان ، وتقلبك العاطفة ، وتلفتك الأبوّة عما أنت فيه :

عن الأرض الفوّارة الفيَّاضة ، والسماء المطَّارة الهطَّالة ، والرياح العواصف ، والأمواج الغواضب ، والسفينة ، وهى تسير باسم الله ، وعلى بركة الله ! .

بركاتُ الله عليك يا نوح ، وعلى من اتبعك من المؤمنين القلائل ، وهم لا يتجاوزون السبعين ، حين يركبون سفينتك ، ويلوذون بدينك .

ولعنة الله على الكافرين الهالكين ، وهم يفزعون ويستغيثون ، وفى الطوفان يفهقون ويغرقون ، تلاطمهم أمواج مائجة ، كالجبال الهائجة ! .

وأنت يا نوح فيما أنت فيه ، تفزع إلى ربك تناجيه :

رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق .

وعدتنى أن تُنْجيَنى أنا وأهلى ومَنْ معى .

وهذا ولدى ، من أهلى ، وفلذة كبدى ، وبه يقوى جلدى ، فى شيخوختى ، وانحلال جسدى !

يا رب أنقذ ولدى !

* * *

يا نوح : إنه ليس من أهلك ، فاكبح عاطفتك ، وثبْ إلى رشدك ، وزِنْ الأمور بعقلك لا بوجدانك !

فهذا ولد فاسد ، فسد أصله ، وساء فعله ، فليتبرأ منه أهله .

* * *

وأين يا نوح إيمانك بى ، وثقتُك فىّ ، واعتمادك علىّ !

أنسيت أننى أنا ربك ، ومالِكُ أمرك ، ليس لك أن تسألنى أن أكشف عنك حكمتى فى خلقى ، وتدبيرى فى ملكى !

فلا تسألنى ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . إنى أنا ربك يا نوح ، وأنت رسولى ونبيى ، وما يسأل النبى عما لا يعلم ، وإلا كان فعله فعل الجاهلين الضالين .

* * *

وأفاق نوح من ضلاله ، ونزع عنه عواطفه ، وأحسّ بعد ما غفا ، وصحا بعد ما غفل ، وتاب واستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب .

وقال : رب إنى أعوذ بك ، أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى ، أكن من الخاسرين .

وقبل الله توبته ، وغفر له ، وبارك عليه ، وقال : يا نوح : اهبطْ بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك ، وعلى أممٍ ممن معك .

سلام الله عليه ، وعلى الأجيال والأمم التى ستتوالد وتتناسل من المؤمنين معه ، ليعمر الكون من جديد بهم ، كما عمره من قبلهم أبوهم آدم :

* * *

وسيكون من الأقوام أقوام ، يغفلون عن الله ، كما غفل الأقدمون من قبلهم ، وسيكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام والأوثان من دون الله .

وسيُمتعهم الله وسيُملى لهم ويمدّ لهم فى غناهم وفى أعمالهم ، حتى يغرقوا فى كفرهم ، ثم تحقُّ عليهم كلمة العذاب ، فيمسّهم من الله عذاب أليم .

* * *

« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

* * *

هود

[وسيكون من الأقوام أقوام ، يغفلون عن الله ، كما غفل الأولون ، وسيكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام ، والأوثان من دون الله ؛ وسيمتعهم الله ، وسيملى لهم ، ويمد لهم فى غنائهم وفى أعمارهم ، حتى يغرقوا فى كفرهم ، حتى تحق عليهم كلمة الله ، فيمسهم منه عذاب أليم] .

* * *

« وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

* * *

أولئك هم قوم : هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .

* * *

فقد عاش فى جنوب الجزيرة العربية ناس ، كانوا فى نعيم ، وفى عز وترف ، وبسطة فى الأجسام والأموال .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة » .

أجسام قوية ، متينة البِنْيَة ، وصحة وعافيـة ، وخير وفير ، وجنات وبساتين ، ودور وقصور ، ذات أعمدة فارهة الطول ، بل إنهم نحتوا من الجبال بيوتاً ، ومن مجارى الميـاه ومساقطها ، مشروعات وخزانات ، تمكيناً للحياة ، وتوطيداً للترف ، وتأميناً من تقلبات الزمن ، أقاموها قوة واقتدارا ، وأبهة وافتخارا ، وعَيْثاً فى الأرض وفسادا .

« أتبنون بكل رِيعٍ آيةً تعبثون ، وتتخذون مصانع لـكم تخلدون ، وإذا بطشتم ، بطشتم جبارين ؟ » .

قومُ عاد ، إرَم ، ذاتِ العماد ، التى لم يُخلق مثلُها فى البلاد . وزعموا

أن شدَّادا من قوم عاد ، سمع بالجنة ، فأخذته العزة بالإثم وأبى إلا أن يبنى لنفسه جنة فى الدنيا ، تضارع جنة الآخرة ، وبناها فى رمال عَدَن ، وسماها إرمَ ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد .

ما رأى التاريخ ، مثل ما رأوا ، ولا سعِدَ ناسٌ كما سعدوا ، ولا أُترِفَ خَلْقٌ كما أُترفوا .

ولـكنهم ضلوا ، وتاهوا عن الله . وعبدوا الأصنام والتماثيل ، واتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله .

كفروا وأشركوا ، وجحدوا ما هم فيه من نعمة ، فاستحقوا العقاب والنقمة .

« وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مُترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

كذلك كان قوم عاد ، مع نبيهم هود .

* * *

أرسل الله إليهم نبياً منهم ، ليس غريباً عنهم ، وهو طيب فى خُلقه ، محمود فى سيرته ، متمسكٌ بدينه ، حكيم فى تصرفه ، حليم على من يؤذيه ، وهو ذو قلب رحيم ، وعاطفة سامية .

* * *

ونظر هود فى أمر قومه ، فبان له سوء حالهم ، وعُتُوُّ نفسهم ، وجهالة تفـكيرهم ، فقال لهم : يا قوم : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ولها تسجدون ؟ ولا تستحق منكم ما تقدسون ؟

أهذه الأحجار الصماء آلهة ؟ أين تفكيركم ؟ ءَأَلْغَيْتُمْ عقولكم ؟ أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟

يا قوم ، اعبدوا الله الذى خلقكم ورزقكم ، ومنَّ عليكم ، وآتاكم ما لم يُؤت أحداً من العالمين !

ولكن القوم عجبوا من قوله ، واستغربوه ، وتهكموا به ، وقالوا : أجئتنا ، لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد أباؤنا ؟ فأْتنا بما تعدنا ، إن كنت من الصادقين .

فرد عليهم بقوله : أو عجبتم ، أن جاءكم ذِكْرٌ من ربكم ، على رجل منكم ، لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟

يا قوم : لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى ، أفلا تعقلون ؟ ويا قوم ، استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مدبرين .

* * *

وأدركهم العناد ، كما أدرك آباءهم قوم نوح ، وأبوا عليه أن يؤمنوا ، إلا أن يأتيهم بدليل واضح ، وآيةٍ بينة ، على صدق رسالته ، وصحة دعواه ، وأصروا واستكبروا .

« يا هود ، ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ! » .

بل طغوا فى إصرارهم ، وتجبَّرُوا فى عنادهم ، وافتروا كذبا على أصنامهم

وأوثانهم ، وادَّعَوْا أنها قادرة مقتدرة ، وأنها تبطش بمن يقاومها ، وبمن يدعو إلى دين غير دينها ، وأنها مسَّتْ بالسوء هودا ، فاختلط عقله ، واختبل تفكيره ، وهو من أجل ذلك يهْذِى .

« إن نقول : إلاَّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء »

* * *

ولم يكن بُدٌّ من أن ينفض هود يده من هؤلاء الذين يَبَستْ عقولهم ، وتحجَّرت نفوسهم ، وغرقوا فى الكفر إلى أذقانهم .

فتولى عنهم ، وقال لهم : يا قوم : لقد نصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين . ياقوم إنى أشهد الله ، واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه .

ثم تحداهم ، ليعرف آخر ما يدخرون فى عناده من شدة ومجادلة .

فكيدونى جميعاً ، ثم لا تُنظِرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ، الذى يملك ناصيتى وناصيتكم ، ما من دابةٍ إلا هو آخذ بناصيتها .

* * *

وكذلك أبى قوم هود أن يخضعوا ، وأن يؤمنوا : وكذلك حقت عليهم ، كلمة ربك ، فأنزل بهم عقابه وعذابه .

* * *

وكان عقابهم سحاباً أول الأمر ، فحسبوه نعمة ورحمة من ربهم ، فإذا هو نقمةٌ وعذابٌ نازلٌ بهم .

ثم كانت الريح الصَّرْصَرُ العاتية ، ريح السَّمُوم والحُسُوم ، عَفَرَتهم بالرمال ، وملأت أعينهم بالحصا ، ثم عَنُفَتْ بهم ، فَسَفَتْ عليهم ، وعلى

دورهم ، فردمتها وردمتهم ، وحملت عليهم حملة مغبرَّة ، فاقتلعتهم ، وقوّضت ديارهم وقصورهم ، وطمرتهم فى جوف الأرض .

ريح السَّمُوم والحُسُوم ، سبع ليال ، وثمانية أيام ، فكنت تراهم ، وقد تردَّوْا ، وانطرحوا على الأرض صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ولا ترى لهم من باقية .

« فلما جاء أمرُنا نجينا هوداً ، والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يَغْنَوْا فيها ، ألا بعداً لعادٍ قوم هود » .